الباب الثامن والثلاثون: في كتمان السر وتحصينه وذم إفشائه

قال الله تعالى حكاية عن يعقوب صلوات الله وسلامه عليه: ﴿يا بنيَّ لا تقصُصْ رؤياك على إخوتك﴾[1] الآية، فلما أفشى يوسف عليه رؤياه بمشهد امرأة يعقوب، أخبرت أخوته فحل به ما حل. ومن شواهد الكتاب العزيز في السر قوله تعالى: ﴿فأوحَى إلى عبدِهِ ما أوحى﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وما هو على الغَيْبِ بِضَنينٍ﴾[3] أي بمتَّهم، وفي الحديث: استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان. فإن كل ذي نعمة محسود. وقال علي رضي الله عنه وكرم وجهه: سِرُّك أسيرك فإذا تكلمت به صرت أسيره.

واعلم أن أمناء الأسرار، أقول وجوداً من أماء الأحوال، وحفظ الأموال أيسر من كتمان الأسرار، لأن احراز الأموال منيعة بالأبواب والأقفال، واحراز الأسرار بارزة يذيعها لسان ناطق، ويشيعها كلام سابق، وحمل الأسرار أثقل من حمل الأموال، فإن الرجل يستقل بالحمل الثقيل فيحمله ويمشي به، ولا يستطيع كتم السر وإن الرجل يكون سره في قلبه فيلحقه من القلق والكرب ما لا يلحقه من حمل الأثقال، فإذا أذاعه استراح قلبه، وسكن خاطره، وكأنما ألقى عن نفسه حملاً ثقيلاً. وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: القلوب أوعية، والشفاه أقفالها، والألسن مفاتيحها، فليحفظ كل إنسان مفتاح سره. ومن عجائب الأمور أن الأموال كلما كثرت خزائنها كان أوثق لها، وأما الأسرار فإنها كلما كثرت خزائنها كان أضيع لها، وكم من إظهار سر أراق دم صاحبه ومنعه من بلوغ مآربه، ولو كتمه أمِنَ من سطوته. وقال أنو شروان: من حصّن سرّه فله بتحصُّنه خصلتان، الظفر بحاجته، والسلامة من السطوات، وقيل: كلما كثرت خزان الأسرار زادت ضياعاً. وقيل: انفرِدْ بسرِّك لا تودَعْهُ حازماً فيزل، ولا جاهلاً فيخون. وقال كعب بن سعد الغنوي:

ولستُ بمبدٍ للرجالِ سريرَتي[4] ... ولا أنا عن أسرارِهم بسؤولُ

وقال أبو مسلم صاحب الدولة:

أدركتُ بالحزمِ والكتمانِ ما عجزَتْ ... عنه ملوكُ بني مروانَ إذ جهدُوا
ما زلتُ أسعى عليهم في ديارهم ... والقومُ في غفلةٍ بالشام قد رَقَدُوا
حتى ضربْتُهم بالسيفِ فانتبهوا ... من نومةٍ يَنْمَهَا قبلَهُم أحدُ
ومَنْ رَعَا غنماً في أرضِ مسبعَةٍ[5] ... ونامَ عنها تولَّى رَعْيَها الأسدُ

---

(١) سورة: يوسف، الآية: ٥.
(٢) سورة: النجم، الآية: ١٠.
(٣) سورة: التكوير، الآية: ٢٤.
(٤) سريرتي: ما أخفي.
(٥) مسبعة: تكثر فيها السباع.

وأسرّ رجل إلى صديقه حديثاً، ثم قال له: أفهمتَ؟ قال: بل جهلت. ثم قال له: أحفظتَ؟ قال: بل نسيت. وقيل لبعضهم: كيف كتمانك للسر؟ قال أجحد المخبر، وأحلف للمستخبر. وقال المهلب: أدنى أخلاق الشريف كتمان السر، وأعلى أخلاقه نسيان ما أسر إليه. ومن أحسن ما قيل في كتمان السر قول الشاعر:

ولهـا سـرائـرُ فـي الضميـرِ طـوَيْتُهـا ... نسـيَ الضميـرُ بـأنهـا فـي طيِّـهِ

وقد أجازه الشيخ شمس الدين البديري[1] فقال:

إنـي كتمـت حـديـثَ ليلـى لـم أبُـحْ ... يـومـاً بظـاهـرِهِ ولا بخفيِّـهِ
وحفظـتُ عهـدَ ودادِهـا متمسِّكـاً ... فـي حبِّهـا بـرشـادِهِ أو غيِّـهِ
ولهـا سـرائـرُ فـي الضميـر طـوَيْتُهَـا ... نسـيَ الضميـر بـأنهـا فـي طيِّـهِ

وقيل: كتمان الأسرار يدل على جواهر الرجال، وكما أنه لا خير في آنية لا تمسك ما فيها، فكذلك لا خير في إنسان لا يمسك سره. قال الشاعر:

ومستـودعـي سـراً كتمـتُ مكـانَـه ... عـن الحـسِّ خـوفـاً أن يَنُـمَّ بـه الحـسُّ
وخفـتُ عليـه مـن هـوى النفسِ شهـوةً ... فـأودَعْتُـهُ مـن حيـثُ لا تبلـغ النفـسُ

وقال قيس بن الخطيم:

أجـودُ بمكنـونِ التـلادِ وإننـي ... بسـرِّي عمَّـنْ سـالنـي[2] لضنيـنُ
وإن ضيَّـعَ الأقـوامُ سـرِّي فـإننـي ... كتـومٌ لأسـرارِ العشيـرِ أميـنُ

وقال جعفر بن عثمان:

يـا ذا الـذي أودَعَنـي سـرَّهُ ... لا تَـرْجُ أن تسمَعَـهُ منـي
لـم أجْـرِهِ قـطُّ علـى فكـرتـي ... كـأنَّـهُ لـم يَجْـرِ فـي أذنـي

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: ما أفشيت سري إلى أحد قط فأفشاه، فلمته إذ كان صدري به أضيق. وقال الأحنف بن قيس: يضيق صدر الرجل بسره، فإذا حدث به أحداً قال: اكتمه عليّ. قال الشاعر:

إذا المـرءُ أفشـى سـرَّه بلسـانِـهِ ... ولامَ عليـه غيـرَهُ فهـو أحمـقُ
إذا ضـاقَ صـدرُ المـرءِ عـن سرِّ نفسِـهِ ... فصـدرُ الـذي يستـودعُ السـرَّ أضيـقُ

وقال آخر:

إذا مـا ضـاقَ صـدرُكَ عـن حـديـثٍ ... وأفشَتْـهُ الـرجـالُ فمَـنْ تلـومُ
وإن عـاتَبْـتُ مَـنْ أفشَـى حـديثـي ... وسـرِّي عنـدَه فـأنـا الملـومُ

وقال صالح بن عبد القدوس: لا تودِعْ سرَّك إلى طالبه، فالطالب للسر مذيع. ولا تودع مالك عند مَنْ يستدعيه،

---

(١) ورد في نسخ: البدوي.
(٢) سالني: أي سألني مخففة الهمز للضرورة.

فالطالب للوديعة خائن. وقيل لأعرابي: ما بلغ من حفظك للسر؟ قال: أفرقه تحت شغاف قلبي ثم أجمعه، وأنساه، كأني لم أسمعه. وكان يقال: أحزم الناس مَنْ لا يفشي سره إلى صديقه مخافة أن يقع بينهما شر فيفشيه عليه. وقال حكيم: قلوب الأحرار قبور الأسرار. وقيل: الطمأنينة إلى كل أحد قبل الاختبار حمق. وقال بعضهم:

إذا ما غفرتَ الذنوبَ يوماً لصاحبٍ ... فلستَ معيداً ما حييتَ له ذكرا
ولستُ إذا ما صاحبٌ خانَ عهدَهُ ... وعندي له سرٌّ مذيعاً له سرّا

وأين هذا من قول القائل:

ولا تودعِ الأسرارَ أذني فإنما ... تصبَّنَّ ماءً في إناءٍ مثلَّمِ

أو القائل:

ولا أكتمُ الأسرارَ لكنْ أذيعُها ... ولا أدعُ الأسرارَ تعلو على قلبي
وإن قليل العقلُ مَنْ باتَ ليلَه ... تقلبه الأسرارُ جنباً إلى جنبِ

وقال آخر:

وإنَّكَ كلَّما استودَعْتَ سرّاً ... أنمُّ من النسيمِ على الرياضِ

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي:

أناسٌ أمنّاهم فنمُّوا حديثنا ... فلما كتَمْنَا السر عنهم تقوَّلُوا

ولله در المتنبي حيث قال:

وللسرِّ مني موضعٌ لا ينالُهُ ... نديمٌ ولا يفضي إليه شرابُ

وقد اقتصرنا من ذلك على هذا القدر اليسير، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كبيراً، إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.